



تمثلات الآخر الغربي في الفكر والرواية العربية المعاصرة (مقاربة ثقافية نقدية)

د. نسرين سلمان العواد

أستاذ مساعد، قسم الدراسات الاجتماعية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية

البريد الإلكتروني: nalawaad@ksu.edu.sa

المخلص

خلصت هذه الدراسة إلى تحليل مفهوم الآخر في الفكر العربي المعاصر من خلال تتبع أسسه النظرية والفكرية، واستكشاف صورة الغرب في الخطاب العربي الحديث، ورصد تجليات هذه الصورة في الرواية العربية المعاصرة. وتناقش الدراسة العلاقة الجدلية بين الأنا والآخر ودورها في تشكيل الهوية والصور النمطية، مع التركيز على إسهامات إدوارد سعيد في نقد الاستشراق بوصفه أحد أهم الأطر المفسرة لصورة الشرق في الفكر الغربي. كما تستعرض المواقف الفكرية العربية تجاه الغرب، والتي تراوحت بين الرفض والانبهار والنقد، قبل أن تنتقل إلى تحليل نماذج روائية عربية كشفت عن تعقيدات العلاقة بين الشرق والغرب. وتخلص الدراسة إلى أن بناء علاقة متوازنة مع الآخر يتطلب تجاوز الصور النمطية وتعزيز الحوار الحضاري القائم على الاعتراف المتبادل والاحترام الثقافي، كما أن تجاوز الثنائية التقليدية بين الشرق والغرب يتطلب الانتقال من منطق الصراع والإقصاء إلى منطق الحوار والتواصل الحضاري، والاعتراف المتبادل بالاختلاف الثقافي، مع ضرورة ممارسة النقد الذاتي للصور النمطية التي يحملها كل طرف عن الآخر، بما يسهم في بناء علاقات أكثر توازناً وإنسانية في عالم يتزايد فيه التفاعل الثقافي والحضاري.

الكلمات المفتاحية: الآخر، الأنا، الهوية الثقافية، الاستشراق، الشرق والغرب، الفكر العربي المعاصر، الرواية العربية، الصورة النمطية، الهيمنة الثقافية.



Representations of the Western Other in Contemporary Arab Thought and Arabic Fiction (A critical cultural approach)

Dr. Nasreen Salman Al-Awad

Assistant Professor, Department of Social Studies, College of Humanities and Social Sciences, King Saud University, Saudi Arabia

Email: nalawaad@ksu.edu.sa

ABSTRACT

This paper aimed to explore the concept of the Other in contemporary Arab thought by tracing its theoretical and intellectual foundations, exploring the image of the West in modern Arab discourse, and investigating its representations in contemporary Arabic fiction. The study discusses the dialectical relationship between the Self and the Other and its role in shaping identity and stereotypes, with particular emphasis on Edward Said's contributions to the critique of Orientalism as one of the most influential frameworks for understanding representations of the East in Western thought. It also reviews Arab intellectual attitudes toward the West, which have ranged from rejection and admiration to critical engagement, before analyzing selected Arabic novels that reveal the complexities of the relationship between East and West.

The study concludes that building a balanced relationship with the Other requires transcending stereotypes and promoting intercultural dialogue based on mutual recognition and cultural respect. Furthermore, overcoming the traditional East–West dichotomy necessitates a shift from the logic of conflict and exclusion to one of dialogue and civilizational communication, alongside mutual acknowledgment of cultural differences and a critical reassessment of the stereotypes each side holds about the other. Such an approach can contribute to fostering more balanced and humane relations in an increasingly interconnected cultural and civilizational world.

Keywords: The Other, Self, Cultural Identity, Orientalism, East and West, Contemporary Arab Thought, Arabic Fiction, Stereotypes, Cultural .



مقدمة

يُعد مفهوم الآخر من المفاهيم المركزية في الدراسات الفكرية والثقافية المعاصرة، لما يرتبط به من قضايا الهوية والاختلاف والتفاعل الحضاري بين الشعوب والثقافات. وقد اكتسب هذا المفهوم أهمية خاصة في الفكر العربي الحديث والمعاصر نتيجة التحولات السياسية والثقافية التي شهدتها المجتمعات العربية منذ بدايات الاحتكاك المباشر بالغرب في العصر الحديث، وما نتج عن ذلك من تساؤلات عميقة حول الذات العربية وحدود علاقتها بالآخر الغربي.

ولم تكن العلاقة بين الشرق والغرب علاقة ثابتة أو أحادية البعد، بل اتسمت بالتعقيد والتداخل، حيث تراوحت بين الحوار والصراع، والتأثر والتأثير، والانفتاح والانغلاق. وقد انعكس هذا التداخل على الخطابات الفكرية والأدبية العربية التي سعت إلى تفسير أسباب التقدم الغربي والتأخر العربي، وإعادة النظر في صورة الذات وصورة الآخر في ظل التحولات الحضارية المتسارعة التي يشهدها العالم المعاصر.

وتُعد الرواية العربية من أبرز الأجناس الأدبية التي تناولت إشكالية الآخر، إذ تحولت إلى فضاء سردي قادر على تمثيل التوترات الثقافية والحضارية والكشف عن الصور الذهنية المتبادلة بين الشرق والغرب. ومن خلال السرد الروائي أمكن رصد التحولات التي طرأت على الوعي العربي بالغرب، والكشف عن طبيعة التمثلات التي حكمت هذه العلاقة عبر مراحل تاريخية مختلفة.

وانطلاقاً من ذلك، تسعى هذه الدراسة إلى استكشاف تمثيلات الآخر الغربي في الفكر والرواية العربية المعاصرة، من خلال الجمع بين التحليل النظري للمفهوم ودراسة تجلياته في نماذج روائية عربية مختارة، بما يسهم في فهم أعقق لطبيعة العلاقة بين الذات العربية والآخر الغربي، والكشف عن الأبعاد الثقافية والفكرية التي أسهمت في تشكيل هذه العلاقة وإعادة إنتاجها في الخطاب العربي المعاصر.

المبحث الأول

الإطار المفاهيمي والنظري لمفهوم الآخر

من المعروف أن الإنسان بطبيعته كائن اجتماعي لا يمكنه العيش بمفرده دون أن يتواصل مع الآخرين، إذ أن "الأنا" لا تستطيع العيش إلا في علاقتها بالآخر. فالعلاقة مع الآخر ضرورة من ضرورات الوجود الإنساني ويمكن للمرء من خلال الآخر أن يكتشف نفسه، ويقف على قدراته. يشير حميش (2003) "أن هذا التلازم بين المفهومين (الأنا والآخر) قد أبرزته أعمال العلماء النفسيين والاجتماعيين الذين اهتموا بالقضايا المتصلة بالذات والآخر. فلقد أسهم كلا من تشارلز كولي وجورج هيربرت ميد في تأسيس النظرة الاجتماعية لمفهوم الأنا ومفهوم الآخر." (ص5).

يرى كولي أن البيئة الاجتماعية لها تأثير كبير في تكوين الذات والشخصية وأن الشعور بالأنا لا يظهر إلا من خلال التفاعل مع ذوات الآخرين.

يشير لبيب (1999) "هناك مفهومان مهمان في أعمال كولي أولهما مفهوم الذات المرآة، ويشير إلى تخيلنا لما نبدو عليه في نظر الآخرين وتخيلنا لحكم الآخرين علينا وهذه التخيلات يترتب عليها شعور معين لدينا يحدد معظم تصرفاتنا في مختلف المواقف. والمفهوم الثاني هو نحن أو الذات الجماعية ويشير إلى صيغة معينة للأنا تتحقق في حالة وجود جماعة تضم في عضويتها عدداً من الأفراد يشعرون بالتعاون فيما بينهم، وباختلافهم عن أو تعارضهم مع جماعات أخرى" (لبيب، 1999، ص. 812).

ونستنتج مما سبق أن هناك عنصرين مهمين في معظم الكتابات التي عالجت صورة الذات والآخر، العنصر الأول معرفي وعلى ضوئه يبدو "آخر" مفهوماً تكوينياً أساسياً للهوية، أي للذات وهي تحدد هويتها، فلا هوية بدون "آخر"، أما العنصر الثاني فقيمى يكتسب "الآخر" من خلاله قيمة أو موقفاً في سلم ترانثي يكون من خلاله مقبولاً أو مرفوضاً، طيباً أو سيئاً. وبالطبع فإن هذين السياقين غالباً ما يجتمعان، فيكون تحديد الهوية جزءاً من موقف قيمى أو أخلاقى.

ويعرف لبيب (1999) صورة الذات بأنها نسق تصوري تطوره الكائنات البشرية أفراداً كانت أم جماعات وتتبناه وتنسبه إلى نفسها ويتكون هذا النسق التصوري من مجموعة من الخصائص الفيزيائية والنفسية



والاجتماعية ومن عناصر ثقافية كالقيم والاهداف والقدرات التي يعتقد الافراد او تعتقد الجماعة انها تنسم بها" (ص 813).

يوضح نور الدين (2000) أن الإنسان قبل أن يكون صورة للأخر بحاجة إلى تكوين صورة لذاته وهويته معتمداً على انتماءاته وخصائصه الدينية والعرقية والفكرية وهي صورة تكتسب قوتها باندماجها مع الوسط الذي ينتمي إليه، والذي يقوي هذه الخصائص يجعلها سمة عامة للشعب والمجتمع الذي ينتمي إليه. ومن هنا يبدأ العقل في تمييز من يقابله بين منتم إلى الذات منسجم مع خصائصها أو آخر مخالف لها يتصف بصفات مغايرة لها (ص 17).

وبناء على ذلك نستنتج أن الذات تصنع صورة من المعتقدات والأفكار للأخر المختلف الذي هو عبارة عن مجموعة من السمات والسلوكيات الاجتماعية والفكرية والنفسية التي تميز الفرد والآخرين بشير الحربي، (1441) أنه في سياق معين يرى الإنسان نفسه عربياً، ويعرف نفسه في سياق آخر بأنه مسلم، وفي سياق مغاير يرى نفسه ينتمي إلى وطن وجنسية تمثل ذاته، ومثل ذلك يقال في الانتماء إلى القبيلة وهكذا...

المبحث الثاني

صورة الغرب في الفكر العربي المعاصر

تمثل صورة الغرب في الفكر العربي المعاصر إحدى أكثر القضايا حضوراً في الخطاب الفكري والثقافي العربي، نظراً لما تحمله من أبعاد تاريخية وحضارية وسياسية وثقافية متشابكة. فالعلاقة بين الشرق والغرب لم تكن مجرد علاقة جغرافية بين فضاءين متقابلين، بل شكلت عبر التاريخ مجالاً للتفاعل والتأثير المتبادل، كما كانت في أحيان كثيرة ساحة للصراع والتنافس والهيمنة. وقد أسهمت الأحداث التاريخية الكبرى، بدءاً من الحروب الصليبية ومروراً بالحملة الفرنسية على مصر ووصولاً إلى مشروع النهضة العربية الحديثة، في تشكيل الوعي العربي بالغرب وصياغة التمثلات المختلفة له.

ومن هذا المنطلق، تعددت المواقف الفكرية العربية تجاه الغرب تبعاً لاختلاف المرجعيات الفكرية والأيدولوجية؛ فبينما اتجه بعض المفكرين إلى النظر إلى الغرب بوصفه نموذجاً حضارياً متقدماً يستحق الاقتداء والاستفادة من إنجازاته العلمية والسياسية، تبنى آخرون موقفاً نقدياً يرفض التبعية والانبهار، ويدعو إلى قراءة متوازنة تقوم على الاستفادة من منجزات الحضارة الغربية دون التفریط بالهوية الثقافية العربية والإسلامية. وفي المقابل، ظهرت اتجاهات أخرى نظرت إلى الغرب من زاوية الصراع الحضاري والهيمنة الثقافية، فغلب على خطابها الرفض والشك تجاه المشروع الغربي.

وتزداد أهمية دراسة صورة الغرب في الفكر العربي المعاصر من خلال ارتباطها المباشر بقضايا الهوية والتحديث والنهضة والتقدم، إذ إن السؤال الذي شغل المفكرين العرب منذ القرن التاسع عشر لم يكن متعلقاً بالغرب في ذاته بقدر ما كان مرتبطاً بأسباب تقدمه وأسباب تأخر المجتمعات العربية. ومن هنا نشأت رؤى فكرية متعددة عكستها التيارات العلمانية والليبرالية والسلفية، والتي قدم كل منها تصوراً خاصاً لطبيعة العلاقة مع الآخر الغربي وحدود التفاعل معه.

وفي ضوء ذلك، يسعى هذا المبحث إلى تتبع الخلفية التاريخية للعلاقة بين الشرق والغرب، ثم تحليل أبرز المواقف الفكرية العربية من الغرب، قبل الوقوف على تصورات التيارات الفكرية العربية المختلفة تجاه الآخر العربي، للكشف عن طبيعة الصور والتمثلات التي أسهمت في تشكيل الوعي العربي المعاصر بالغرب.

أولاً: الخلفية التاريخية للعلاقة بين الشرق والغرب

يشير ليبب (1999) أن صورة الشرق تتخذ أشكالاً متقاربة من حيث ارتسامها في ذاكرة المجتمعات الغربية إذ تختزل في اغلب الأحيان في الإنسان الذي لا يرتبط بالحياة البشرية والاجتماعية بغير الخيمة والقبيلة وروابط القرابة يترحل على ارض قاحلة وسيلته في ذلك الجمل وعلى ضوء تلك الصورة تنشأ الأجيال وتتشكل اتجاهات الراي العام التي تتفاعل مع الاحداث السياسية والعسكرية. (ليبيب ، 1999).

يعتقد البعض أن الصورة السلبية وغير الواقعية عن الشرقي قد اختفت، ولكن لا تفتأ أن تبرز من جديد فتحدث اهتزازات في مرتكزات القيم والأفكار التي بدأت تترسخ في الشرق عن إنسانية الغرب وفضله على العالم، هذه الاهتزازات بدأت تطرح تساؤلات حول مصداقية المفاهيم السائدة ونظريات التحليل، وقد بدا جلياً للشرق



ان اتخاذ الاحكام والتقديرات والإجراءات على مستوى توزيع الأدوار وتقسيم العالم وتنظيم المشاركة انما أصبح محكوماً بموازن القوة وبالتفاضلية الحضارية التي تتخذ أشكالاً عديدة سياسية وثقافية ومعرفية. (ليبب، 1999) وسنحاول ان نتطرق في هذا السياق لشكلاً معرفياً يواكب علاقة الشرق بالغرب منذ العصر الوسيط إلى عصرنا الحاضر هو الاستشراق حيث يشير مصطفى (د.ت) أنه " تعبير أطلقه الغربيون على الدراسات المتعلقة بالشرقيين وشعوبهم وتاريخهم واديانهم، ولغاتهم وأوضاعهم الاجتماعية وحضارتهم. وكان هدفهم الأساسي دراسة الإسلام والشعب الإسلامية لخدمة أغراض التبشير من جهة، وخدمة أغراض الاستعمار الغربي لبلدان المسلمين من جهة أخرى ولإعداد الدراسات اللازمة لمحاربة الإسلام وتحطيم الأمة الإسلامية". (ص 25)

ويعد ادوارد سعيد من الذين أسهموا في تطوّر مصطلح (الأخر)، ليس من الناحية النظرية فقط، بل من جانب التحليل السياسي والثقافي والسوسيولوجي، فقد شحن سعيد المصطلح بدلالات إمبريقية ونصوصية قوية أكسبته حضوراً واسعاً في عدد من الحقول المعرفية، لا سيما في حقل الدراسات ما بعد الكولونيالية الشرق هو "آخر" أوروبا من حيث هو نقيضها أو وجهها الآخر، وموضوع تحليلها ومعرفتها وسيطرتها في الوقت نفسه، وهو من هنا بنية ذهنية، حسب سعيد أكثر من كونه حقيقة واقعة. ويؤكد بأن الاستشراق عمل على تسويغ وتبرير الحكم الاستعماري اذ تحول من انشاء بحثي الى مؤسسة إمبريقية.

ومن ذلك تبرز معالم الاستشراق بانه أسلوب للهيمنة على الشرق يقوم على صورة خيالية تدعي الفوقية الغربية مقابل الدونية للشرق. وحول مواجهة الاستشراق يشير (سعيد، 1978) الى أهمية انشاء مؤسسات ومراكز لدراسة الغرب تقارع مراكز الدراسات الاستشراقية في الغرب دون الانزلاق الى استغراب معكوس يشابه مناهج المستشرقين تدرج تحت مفهوم الاستغراب. (ص 173)

لقد جاءت خلال القرن المنصرم كتابات متناثرة وتدور غالبيتها حول الأنظمة السياسية والتيارات العلمية أو الفكرية، مختزلة الغرب في تصور ذي بعد أحادي ينحو إلى الإطلاق سلباً أو إيجاباً. فالحملات الصليبية هي الصورة النمطية المتأصلة في المجتمعات العربية والتي تعكس علاقة الغرب بالمجتمع الإسلامي. يشير (مصطفى، د.ت) إلى ان علاقة الشرق والغرب سلسلة طويلة من التفاؤل والاختلاط وكانت الحروب الصليبية حلقة هدامة فقد كان فيها كثير من الشجاعة والتقوى والقليل من الشرف وكثير من التقوى وقليل من التفهم ولطخت المثل العليا بالقسوة والجشع ولوت النقاني والجلد والاحساس الاناني الاعمى واختلط أخيراً سمو الأخلاقي بضيق الأفق" (ص 23).

فتعد الحملات الصليبية بداية حقيقية لمعرفة الغرب الأوروبي بالشرق الإسلامي معرفة حقيقية وواقعية عن طريق التعايش والاحتكاك فمنذ تلك اللحظات بدأ انتقال الآثار الفنية الشرقية من بلد أوروبي الى بلد أوروبي آخر. أما الحملة الفرنسية التي قادها نابليون بونابرت إلى مصر عام 1798 فلقد كانت مقترنة بالنزاعات الأوروبية الاستعمارية تجاه العالم العربي. بالرغم من أن هذه الحملة حققت العديد من النتائج الإيجابية من قبل العلماء المسلمين، بالإضافة إلى أنها قد أدت بشكل أو بآخر إلى ظهور الحركات الإصلاحية الإسلامية ونزعات التحديث التي غلب عليها الميل إلى "الغرب في شتى أرجاء العالم الإسلامي. (ليبب، 1999: ص 437).

في عهد محمد علي باشا، الذي حكم مصر لعقود عديدة في القرن التاسع عشر، تم إرسال الوفود والطلاب إلى أوروبا لدراسة المدنية الحديثة. ولعل رحلة الطهطاوي تعتبر اول علاقة مثمرة بين الشرق والغرب في العصر الحديث فقد كان كتابه (تلخيص الأبريز في تخلص باريس) يعكس الجدل الحضاري بين الانا والآخر فالغرب عند الطهطاوي هو المرأة المثالية التي تنعكس فيها عيوب الذات (ليبب، 1999: ص 189) ان السمة الغالبة في تناول العربي للاستشراق هي رفض الصورة التي يحملها عن العربي والمسلم والبحث لها عن سياقات ودوافع غير ان هذا الرفض لا يوازيه تساؤل عن الصورة التي يبينها العربي عن الغرب وعن علاقتها بواقع الغرب انه يتشكى من تشويه الغرب لصورته، ولكنه لا ينتبه الى ان صورة الغرب يمكن ان لا تكون اقل تشويهاً في مخياله وخطابه وهو ما قد يعني انه في الوقت الذي يريد ان يكون ذاتاً يواصل التخييل والكلام كموضوع او كمرمى مستهدف. (ليبب، 1999).

ان الاخر الغربي يمد العربي او المسلم بوسائل تعريفية له ومقاومته له وهو بشكل عام يمدد بمراجع الفكر النقدي حالما يكون نقدياً. لذلك فرغم كل الرفض المتواصل للرؤية الاستشراقية فإن تأثيرها يجعل الشرق الحديث يشارك في مشرقة ذاته.



المفارقة في الموقف الفكري من الغرب هي تعبير عن تلازم بين العداوة والاعجاب على الأقل منذ ان تساءل الشرقي عن سر تخلفه وتقدم الغرب نقول الغرب لان الاخر هو الغرب تحديداً في الخطاب العربي والإسلامي المعاصر.

ثانياً: المواقف الفكرية العربية من الغرب:

لقد تباينت المواقف الفكرية العربية تجاه الغرب تبعاً لاختلاف المرجعيات الفكرية والثقافية والسياسية التي انطلق منها المفكرون العرب في تفسير طبيعة العلاقة بين الشرق والغرب. فقد تشكلت صورة الغرب في الوعي العربي الحديث في ظل ظروف تاريخية معقدة ارتبطت بالاستعمار والتحديث والنهضة والتفاعل الحضاري، الأمر الذي أفرز مواقف متعددة تراوحت بين الرفض المطلق والانبهار الكامل، وبينهما موقف نقدي يسعى إلى تحقيق التوازن بين الحفاظ على الهوية والاستفادة من منجزات الحضارة الغربية. ويمكن تصنيف هذه المواقف في ثلاث اتجاهات رئيسية هي: موقف التفوق/الدونية، وموقف الدونية/التفوق، ثم موقف النقد والتأمل الذي يمثل رؤية أكثر اتزاناً في التعامل مع الآخر الغربي.

1- التفوق/الدونية:

هذه الوضعية تكون فيها الأنا هي الأفضل والأنقى والأكثر تفوقاً، وبالتالي تضع الآخر في موضع الأقل والدونية، ويصير الآخر في هذه الحالة، إما عدواً يجب محاربته والنيل منه، وإما متأمراً يحاول أن يهدم صرح حضارتنا، وينال من هويتنا الثقافية. وما يسبب هذه العداوة هي المركزية الذاتية وانغلاق الذات على ذاتها وهو ما يعكس هوية بسيطة قائمة على التطابق أو ضرب من "الشعور بالأنا وبسبب هذه النظرة العدائية تنتقل العلاقة بينهما من مرحلة التعايش والسلام إلى مرحلة العدوان والصراع الجدلي.

2- الدونية/التفوق

وهذه تختلف عن النظرة السابقة، هنا تتركز الأنا/الذات في وضعية أقل بالنسبة إلى الآخر/الهو، فتتظر إليه نظرة

انبهار، وتأمل أن تُصير كل تراثها الثقافي، وهويتها الجمعية بصورة مماثلة للآخر وتدين الذات بشدة، ويصير احتقار الذات في مقابل إعلاء شأن الآخر

3- النقد والتأمل

الموقف هنا أكثر عقلانية في نظرة الأنا لهويتها الثقافية، وتاريخها، وميراثها الحضاري، وكذلك في نظرتها للآخر أعتقد لا بد من قراءة ناقدة للتراث الجمعي للأنا، وإعادة قراءة لمقولاته الثقافية لأنها سوف تنتج البنية الذهنية في نظرتها للذات والهو، كذلك تحاول الذات العاقلة الناقدة أن تقرأ تاريخ الغرب، وميراثه الحضاري، وتأخذ منه ما يناسب الذات ولا يتعارض مع هويتها الثقافية، وتطرح عنها ما يتعارض مع هوية هذه الذات. ومن المهم أن تتخلص الأنا بالآخر من ذهنية العداوة أو الانبهار، بل يجب أن تتبني على ذهنية المساءلة الحضارية والسياسية لإشكالية التقدم والتخلف المتعلقة بالشرق والغرب. كما يجب إدراك أن العلاقة السليمة بين الأنا والآخر هو في الاعتراف المتبادل بين الآخرين والاندماج الاجتماعي والثقافي والتواصل بين الشرق والغرب.

حيث يؤكد (هابرماس) أن الفعل التواصلي بين الآخرين بعد معياري كفيلاً بوضع حل للأزمات الاجتماعية التي يتخبط بها المجتمع، وإمكانية التفكير في الظواهر المرضية للمجتمع الحديث قصد تقويم هذا الأعوجاج، أو ما يسميه بالتواصل المشوّه، الذي يُحول دون بناء مجتمع حديثي، ديمقراطي، يتأسس على التفاهم والتواصل. (السلام، 2013).

ومن هذا المنطلق اعتقد (هابرماس) أن الفعل التواصلي بين الآخرين قد يكون هو المبدأ المؤسس للمجتمع، فالآخر هنا يساهم في تكوين الأنا أو الهوية وبنائها. فالتواصل بين الشرق والغرب بهدف تحقيق التفاهم والتوافق يؤدي إلى تأسيس بناء اجتماعي مترابط وخالي من كل أنماط العنف والسيطرة، كما أن الاحترام المتبادل بين الطرفين كفيلاً بإقامة علاقة تواصل ناجحة بين الذات، خالية من الإكراه، الأمر الذي سينعكس إيجاباً على المجتمع بشكل عام والذات الفردية بشكل خاص.

**ثالثاً: / التيارات الفكرية:**

أبرز الاحتكاك المتواصل بين العالم العربي والغرب منذ عصر النهضة الحديثة جملة من التساؤلات الفكرية المتعلقة بأسباب التقدم الغربي والتأخر العربي، وطبيعة العلاقة مع الآخر الغربي وحدود الاستفادة من منجزاته الحضارية. وقد انعكست هذه التساؤلات على مختلف التيارات الفكرية العربية التي سعت إلى تقديم تصورات متباينة لفهم الغرب وتحديد الموقف منه، انطلاقاً من مرجعياتها الفكرية والأيدولوجية الخاصة.

ففي الوقت الذي نظرت فيه بعض الاتجاهات إلى الغرب بوصفه نموذجاً للتحديث والتقدم ينبغي الاستفادة من تجاربه ومؤسساته، رأت اتجاهات أخرى أن الغرب يمثل مشروعاً ثقافياً مهمناً يهدد الخصوصية الحضارية والهوية الثقافية للمجتمعات العربية والإسلامية. وبين هذين الموقفين برزت رؤى حاولت التوفيق بين الأصالة والمعاصرة، من خلال الجمع بين الحفاظ على الثوابت الثقافية والانفتاح على مكتسبات الحداثة.

ومن ثم، فإن دراسة مواقف التيارات الفكرية العربية من الآخر الغربي تكشف عن طبيعة الجدل الذي دار حول قضايا الهوية والنهضة والتحديث، كما توضح الكيفية التي تشكلت بها صورة الغرب في الوعي العربي المعاصر. وفي هذا السياق سيتم تناول مواقف ثلاثة من أبرز التيارات الفكرية العربية، وهي: التيار العلماني، والتيار الليبرالي، والتيار السلفي، مع بيان تصورات كل منها للآخر الغربي وانعكاسات ذلك على جدلية الأصالة والمعاصرة.

1- التيار العلماني:

تعد العلمانية من أهم القضايا التي شغلت اهتمام الفكر السياسي الحديث الشمولية (فصل الدين عن الدولة) من خلال إبراز أوجه الاختلاف في طبيعة كل من الدين والدولة والاختلاف في حقول نشاط كل منهما وصلحياته الأمر الذي أدى في النهاية إلى طي صفحة الدولة الدينية لتقوم الدولة المدنية العلمانية على أساس من احترام حرية المعتقد وحرية الممارسة الدينية ومن حياد الدولة اتجاه الأديان واتجاه نشاط المؤسسات الدينية بما فيها المؤسسة الدينية التعليمية. إذا كان الأمر كذلك في المجتمعات الغربية فإن علاقة الدين بالدولة أو مسألة العلمانية كانت في المجتمعات

العربية الإسلامية في طبيعة المشكلات السياسية التي شغلت الفكر العربي الحديث والتي لا تزال تشغله خاصة لما ظهرت في عصر النهضة العربية حيث أثير حولها جدل سياسي وأيدولوجي (الجابري، 1982).

لقد اهتم رواد الإصلاح الفكري في عصر النهضة العربية بالعلاقة الجدلية بين مبادئ الدين وسياسة الدولة وقوانينها من جانب الضعف والتخلف الذي يعاني منه المجتمع العربي، وقد كان لكل من محمد عبده وفرح أنطون اجتهادات كبيرة فيما يتعلق بالعلاقة بين الدين، والدولة، وعلاقة التقدم والتخلف.

كما يرى على عبد الرزاق (1925) أن فصل الدين عن السياسة ومعالجة السياسة بالعلم فقط وان ليس بالدين ما يمنع العرب والمسلمين ان يسابقوا الأمم الأخرى في علوم الاجتماع والسياسة. متجاوزاً بذلك أفكار السلفية التقليدية وفتح آفاق جديدة لإعادة قراءة التجربة الإسلامية بمنهجية عقلانية وليبرالية منفتحة على التجارب في الأمم الأخرى. (ص33).

ويرى الجابري (1983) "ان فكرة الوطنية وما يتصل بها من المنافع الاقتصادية والسياسية قامت الان في تكوين الدول وتدبير سياستها مقام فكرة الدين " (ص 237)

لقد ظل الحوار حول العلمانية حواراً مصبوغاً بصيغة القبول أو الرفض باعتباره مفهوماً غريباً يفتتح على علاقة الغرب الحديث بفكره الأنوار المادية، ووجهه الاستعماري بالشرق المنكفي والمدافع عن هويته الروحية منذ السجال الشهير الذي دار بين محمد عبده وفرح أنطون على صفحات مجلة "الجامعة" وجريدة "المنار"، باعتباره يؤرخ لأول استعمال لمفهوم العلمانية في الفكر العربي .

تحاول العلمانية الحد من تأثير المعتقدات الدينية ووضعها تحت المنظور العلمي والعقلاني للتوجه إلى الحداثة ومواكبة سير التطورات في المجتمعات الإنسانية. وبالنظر إلى مدى قبول الشرق لمفهوم العلمانية قد يركز بعض مفكري الإسلام السياسي في نقد العلمانية على أنها نتاج المجتمع الغربي، ولها خصوصيتها الشديدة، ولا

تتوافق مع التكوين الثقافي للمجتمع العربي، وقد تركز رفض الإسلام السياسي للعلمانية على أنها تدعو للفصل بين الدين والسياسة، وهو ما يتعارض مع طبيعة الإسلام.

2-التيار الليبرالي:

من جانب آخر بزغت مفاهيم الدولة القومية، عبر أعمال الكواكبي حين تبلورت لديه مفاهيم ليبرالية، والفصل بين السلطات السياسية والدينية ومحاربة الاستبداد مهما كانت الحرية، حتى لو حملت معها صورة سياسية أو دينية. بدأ الفكر الليبرالي السياسي من مسلمة تقول بأنه لن يتغير شيء في الواقع إن لم يتغير في السياسة أو في الدولة وذلك حين روج الطهطاوي وخير الدين التونسي لفلسفة التنوير باعتبارها نموذج الحداثة: الحرية والمساواة والدستور والقانون، والتعددية الحزبية، والبرلمان. ان المفكرين العرب استجابوا للتحديات التي واجهتهم بطرق مختلفة، فتنوعت إجاباتهم على الأسئلة التي طرحها العصر أمامهم " لماذا تقدم الاخر وتأخرنا نحن (حوراني، 1977) فانفتح رفاة الطهطاوي ونحا منحى ليبراليا على أوروبا أثناء الثورة الفرنسية، وسعى إلى المواءمة بين ما استعاره من عناصر الحضارة الغربية الجديدة، وبين ما هو صالح للبقاء والتطور من تراث المسلمين. فليس هناك فرق كبير بين مبادئ الشرع الإسلامي ومبادئ القانون الطبيعي التي تركز عليها قوانين أوروبا الحديثة.

كما يرى أصحاب هذا الاتجاه أن الغرب بما وصل إليه من تقدم ورقي، في مختلف ميادين الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتقنية والعلمية الثقافية، يستحق الإعجاب والتقدير والاحترام، ويدعوننا إلى ضرورة محاكاته واستحضار تجربته في النهوض والتقدم والرقي. فالغرب من وجهة نظر أتباع هذا الاتجاه نموذج متقدم للحرية والديمقراطية، والدولة المدنية الحديثة، وحقوق الإنسان، فلا داع للخوف منه، بل ينبغي اقتفاء أثره والتشبه به. فعقدة الخوف لدى الشرق من الغرب، ناجمة في الأصل عن التخلف والجهل، والانغلاق على الذات، وقطع جسور العلاقة والتواصل معه أما الملاحظات على بعض السلبات الموجودة في دول الغرب ومجتمعاته، ينبغي ألا تحمّلنا على إصدار أحكام جائرة ومسبقة تجاهه، لأن حقيقة الضعف والتخلف والجهل والانحطاط التي يكابدها الشرق إنما هي من صنع الشرق نفسه. ولا يد للغرب في صنعها، فالعيب يكمن في ذهنية الشرق وفي موروثه الثقافي، وفي المفاهيم العدائية الخاطئة عن الغرب، وانتقالها من جيل إلى جيل آخر، وعليه فالسبيل الوحيد أمام الشرق لتجاوز عقدة النقص والخوف لديه، يتمثل في التوجه نحو حضارة الغرب وعلومه، وتجاوز الذات بقطع كل علاقة مع الماضي والهوية الثقافية والحضارية، والسعي للتقليد الكامل للغرب، في قيمه وعاداته وسلوكه وطريقة تفكيره، وأسلوب عيشه.

3-التيار الإسلامي:

يُعدّ التيار الإسلامي من أبرز التيارات الفكرية التي انشغلت بقضية الآخر الغربي، وذلك بحكم ما شهدته العلاقة بين العالم الإسلامي والغرب من تفاعلات تاريخية وسياسية وثقافية امتدت من العصور الوسطى إلى العصر الحديث. وقد تشكلت رؤية هذا التيار للغرب في سياق التجارب الاستعمارية، والصراعات السياسية، والتحديات الثقافية التي واجهت المجتمعات الإسلامية، الأمر الذي جعل صورة الغرب تتراوح بين الرفض والنقد من جهة، والإقرار ببعض منجزاته العلمية والتقنية من جهة أخرى.

ينطلق التيار الإسلامي من اعتبار الهوية الإسلامية مرجعية أساسية في فهم الذات والآخر، ولذلك ينظر إلى الغرب بوصفه كياناً حضارياً مختلفاً يحمل منظومة قيمية وثقافية مغايرة للمنظومة الإسلامية. وقد ركز العديد من مفكري التيار الإسلامي على نقد الجوانب الفكرية والثقافية للحداثة الغربية، خاصة ما يتعلق بالعلمانية والمادية والفرادانية، معتبرين أنها تتعارض مع التصور الإسلامي للإنسان والمجتمع. وفي المقابل، لم يرفض هذا التيار بصورة مطلقة الإنجازات العلمية والتقنية الغربية، بل دعا بعض مفكريه إلى الاستفادة منها مع الحفاظ على الخصوصية الثقافية والحضارية للأمة الإسلامية (نور الدين، 2000).

ويرى عدد من مفكري التيار الإسلامي أن العلاقة مع الغرب ينبغي أن تقوم على الوعي النقدي لا على التبعية أو الانبهار، بحيث يتم التمييز بين التقدم العلمي والتقني الذي يمكن الاستفادة منه، وبين المرجعيات الفكرية والثقافية التي قد تتعارض مع القيم الإسلامية. وفي هذا السياق أكد مالك بن نبي أن مشكلة العالم الإسلامي لا تكمن في الغرب ذاته، بل في قابلية المجتمعات الإسلامية للتخلف وفقدان فاعليتها الحضارية، داعياً إلى بناء مشروع نهضوي مستقل يستوعب منجزات العصر دون الذوبان في الآخر.



كما ارتبط موقف التيار الإسلامي من الغرب بمسألة الاستشراق والاستعمار، إذ نظر كثير من مفكريه إلى الاستشراق بوصفه أداة معرفية أسهمت في تكوين صور نمطية عن الإسلام والمسلمين، وخدمت في بعض مراحلها المشاريع الاستعمارية الغربية. ولذلك برزت دعوات إلى إعادة بناء صورة الذات الإسلامية وتقديم خطاب حضاري قادر على الحوار مع الآخر دون الوقوع في منطوق الصدام أو التبعية. وعلى الرغم من تنوع اتجاهات التيار الإسلامي بين الإصلاح والحركي والسلفي، فإنها تشترك عمومًا في التأكيد على ضرورة الحفاظ على الهوية الإسلامية في مواجهة الهيمنة الثقافية الغربية، مع اختلافها في طبيعة العلاقة المطلوبة مع الغرب وحدود الانفتاح عليه..

ثالثاً: تحليل نقدي للتيارات الفكرية وموقفها من الآخر/

تكشف دراسة مواقف التيارات الفكرية العربية من الآخر الغربي أن هذه المواقف لم تكن نتاج قراءة موضوعية للغرب بقدر ما كانت استجابة للظروف التاريخية والسياسية والثقافية التي عاشتها المجتمعات العربية منذ عصر النهضة وحتى الوقت الراهن. فكل تيار سعى إلى تفسير أسباب التقدم الغربي والتأخر العربي من خلال مرجعيته الفكرية الخاصة، الأمر الذي أفضى إلى إنتاج تصورات متباينة للآخر تراوحت بين الرفض والانبهار والنقد. فقد انطلق التيار العلماني من فرضية مفادها أن التقدم الغربي ارتبط بتحرير المجال السياسي من الهيمنة الدينية، ولذلك دعا إلى الاستفادة من التجربة الغربية في بناء الدولة الحديثة. غير أن هذا التيار وقع أحياناً في اختزال أسباب النهضة الغربية في العامل السياسي والثقافي وحده، متجاهلاً الخصوصيات التاريخية والاجتماعية للمجتمعات العربية، مما جعله عرضة لاتهامات بتبني نماذج غربية جاهزة دون مراعاة السياق المحلي. كما أن بعض أطروحاته اتسمت بالنزعة النخبوية التي جعلتها بعيدة عن البنى الثقافية السائدة في المجتمعات العربية. أما التيار الليبرالي فقد قدم رؤية أكثر انفتاحاً تجاه الغرب، إذ نظر إليه بوصفه نموذجاً للحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان. وقد أسهم هذا الاتجاه في ترسيخ قيم التعددية والمواطنة والدولة المدنية، إلا أن بعض أطروحاته وقعت في نزعة تمجيدية للغرب، بحيث جرى التعامل مع التجربة الغربية باعتبارها النموذج الوحيد للتقدم. ونتيجة لذلك، تعرض التيار الليبرالي لانتقادات تتعلق بإغفال جوانب الهيمنة الاستعمارية والثقافية التي صاحبت المشروع الغربي الحديث، فضلاً عن محدودية اهتمامه بإشكالية الهوية الثقافية. في المقابل، اتخذ التيار الإسلامي موقفاً أكثر تحفظاً تجاه الغرب، إذ ركز على نقد أبعاده الفكرية والثقافية والسياسية، وربط كثيراً من مشكلات العالم العربي والإسلامي بالإرث الاستعماري الغربي. وقد أسهم هذا التيار في تعزيز الوعي بالهوية الحضارية والدفاع عن الخصوصية الثقافية، إلا أن بعض اتجاهاته وقعت في تعميم صورة سلبية عن الغرب، والتعامل معه بوصفه كتلة واحدة متجانسة، متجاهلة التنوع الفكري والسياسي داخل المجتمعات الغربية. كما أن بعض الخطابات الإسلامية انزلت إلى ثنائية حادة تقوم على التقابل بين "نحن" و"وهم"، الأمر الذي حدّ من إمكانات الحوار والتفاعل الحضاري. ومن منظور نقدي، يمكن القول إن القاسم المشترك بين هذه التيارات يتمثل في أنها غالباً ما تعاملت مع الغرب بوصفه مرجعاً ثابتاً في تعريف الذات العربية، سواء من خلال الرفض أو القبول أو النقد. وهو ما جعل صورة الغرب تحتل موقعاً مركزياً في الخطاب العربي المعاصر. ولذلك فإن تجاوز هذه الثنائية يتطلب الانتقال من منطوق المقارنة والصراع إلى منطوق الفهم النقدي المتبادل، الذي ينظر إلى الغرب بوصفه تجربة إنسانية متعددة الأبعاد، كما ينظر إلى الذات العربية باعتبارها فاعلاً حضارياً قادراً على إنتاج رؤيته الخاصة للحداثة والتنمية. ومن ثم فإن الموقف الأكثر اتزاناً لا يكمن في الانبهار المطلق بالغرب ولا في رفضه المطلق، وإنما في تبني رؤية نقدية تستوعب منجزاته وتخضعها في الوقت ذاته لمعايير الهوية والمصلحة الحضارية للمجتمعات العربية.

المبحث الثالث

التناول الروائي لعلاقة الشرق والغرب

احتلت إشكالية الأنا والآخر مكانة بارزة في الرواية العربية المعاصرة، بوصفها أحد أبرز الموضوعات المرتبطة بقضايا الهوية والاختلاف والتفاعل الحضاري. وقد شكلت العلاقة بين الشرق والغرب مجالاً خصباً للسرد الروائي العربي، حيث سعى الروائيون إلى استكشاف أبعاد هذه العلاقة وما تحمله من توترات ثقافية وسياسية وتاريخية انعكست على وعي الفرد العربي وصورته عن ذاته وعن الآخر الغربي. ولم تعد الرواية



العربية تنظر إلى الشرق والغرب باعتبارهما فضاءين جغرافيين متقابلين فحسب، بل بوصفهما رمزيتين لمنظومتين حضاريتين تتداخل بينهما مشاعر الإعجاب والرفض، والانفتاح والانغلاق، والحوار والصراع. وقد أسهمت التحولات الكبرى التي شهدتها العالم العربي خلال القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين، من استعمار وتحديث وعولمة وصدامات سياسية وثقافية، في إعادة تشكيل صورة الآخر داخل المتن الروائي العربي. فغدت الرواية فضاءً للكشف عن التمثلات المتبادلة بين الشرق والغرب، ولتفكيك الصور النمطية التي يحملها كل طرف عن الآخر، كما أصبحت أداة نقدية لفهم إشكاليات الهوية والهيمنة والتبعية والاختلاف الثقافي. ومن هذا المنطلق، يسعى هذا المبحث إلى استكشاف تجليات صورة الآخر الغربي في نماذج مختارة من الرواية العربية المعاصرة، هي رواية «ريح الجنة» لتركي الحمد، وروايتا «الأشجار واغتتيال مرزوق» و«سباق المسافات الطويلة» لعبد الرحمن منيف. وتُمثل هذه الأعمال نماذج سردية متنوعة عالجت العلاقة بين الشرق والغرب من زوايا فكرية وثقافية مختلفة، مما يتيح الوقوف على طبيعة التمثلات الروائية للآخر الغربي والكشف عن دلالاتها الحضارية والفكرية في الخطاب الروائي العربي المعاصر.

1. ريح الجنة (2005)

عالج بعض الأدباء والمفكرين العرب علاقة الشرق بالغرب، وبالأخص جانب الإرهاب والدين، كرواية "ريح الجنة" لتركي الحمد التي تدور أحداثها حول أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وما أثاره ذلك الحدث من أصداء في الخارطة السياسية في العالم عموماً، وفي العلاقات العربية والأمريكية على وجه التحديد، وإن تطرقت الرواية إلى الفكر الراض للغرب بشئ أتى صورته، فإن الكاتب يحدد رؤيته منذ البداية، من خلال المقدمة التي يوجهها للمتلقي في الصفحات الأولى من الرواية،

يقول: "إلى المسافرين إلى الجنة... أو يعتقدون أنهم إلى هناك مسافرون... هل تعلمون فعلاً إلى أين أنتم مسافرون؟ ضعوا حقائبكم جانباً وفكروا... وفكروا فقط إن بقي مجال للتفكير" (الحمد، 2005: 4)

إذن فالرسالة واضحة برفضها لمبدأ قتل الآخرين دون تفكير، ودون وجهة محددة، ونخلص إلى ذلك من خلال العملية التي سيقوم بها مجموعة من الشباب لضرب أمريكا في عقر دارها، وبأحدث وسائله العلمية، لكن المفارقة ستكون بين الأهداف والنتائج المترتبة بعد تلك العملية الانتحارية التي سيذهب ضحيتها أشخاص أبرياء، تتجلى مشاهد القتل الأولى التي بدأت فيها أحداث الرواية في الانتقام بالقتل وإثارة الرعب.

"نهض محمد دون اكتراث بنظرات عبد العزيز المستغربة واندفع إلى مؤخرة الطائرة، وهناك رآها... تلك العجوز المتصايبة، التي كانت ترتعد فرقاً... انطلق إليها على عجل، وحزبها من شعرها، وقيل أن تنهض عن المقعد، كانت شفرته قد اجتزت عنقها وهو يصيح بصوت كالزئير: "الله أكبر... الله أكبر"... وألقى برأسها بين المسافرين الذين ماتوا قبل أن يموتوا" (الحمد، 2005: 75)

ونستج من ذلك تمثلات رفض الآخر الغربي وأزمة الهوية في رواية «ريح الجنة» حيث أن هناك مظهر من مظاهر العدا للآخر الذي دفع الأنا إلى تبني مثل هذه العمليات الانتحارية، كما يتضح هنا ردة الفعل المترتبة على تلك العلاقة الصراعية بين الشرق الإسلامي كمفهوم خاص والغرب الاستعماري بصفته المركزية.

"لقد كان مولعاً بالحديث عن العمارة وتخطيط المدن وكان لا يتورع عن التعبير عن كرهه لنمط العمارة الغربي الذي في رأيه يلغي الهوية الاصلية للمدن في العالم وخاصة الإسلامي الذي له خصوصية يجب الحفاظ عليها (الحمد، 2005 ص 277)

كما أن رواية «ريح الجنة» تعكس التحولات الاجتماعية الطارئة، وتمثل نقطة مفصلية في تبدل موازين القوى في العلاقة بين الشرق والغرب، كما تكشف بوضوح عن أقصى درجات رفض الآخر الغربي، فالغذية النفسية والاجتماعية التي نشأت ذات فيها سواء ما كان متعلقاً بالأعراف الاجتماعية أو الموروث الديني، فمثل هذه الظروف وغيرها ولدت كرهاً ورفضاً شديداً للآخر الغربي وتمزقاً وتآزماً في نفس الأنا الشرقية. فقد عكست الرواية مظاهر عديدة لرفض الآخر الغربي مثل رفض قيمه وتقاليده وثقافته، كانتقاد الحرية الغربية بين الجنسين.

- بالإضافة إلى أنها تكشف عن انقسام الذهنية الشرقية بين الموروث الثقافي والحداثة، وهو انقسام أفضى إلى خلل اجتماعي واضح؛ إذ يرفض أنصار تقديس التراث دعاة المعاصرة. ويتجلى ذلك في التعبئة الدينية التي يبثها شيخ الدين في حلقات المسجد، بما يغذي النزعة العدائية تجاه الآخر ويصور العلاقة معه بوصفها صراعاً أزلياً لا ينتهي إلا بغلبة أحد الطرفين. وتوضح الرواية أن الاعتداء على الأبرياء لا يصدر عن الآخر بقدر ما يكشف عن أزمة في الذات، فالآخر ليس عدواً بالضرورة، ومن ثم فإن تنقية التراث الثقافي من عناصر الإقصاء والطائفية والعنصرية تمثل شرطاً لمواكبة التقدم الحضاري.

- أيضاً كانت الصورة الذهنية فيما يتعلق بالمستعمر واستبداده في ذهنية الشرقي رسخت قاعدة غالب ومغلوب الذي بسببها يضمحل الآخر ويصبح منتهباً فالعلاقات تحكمها السيطرة والهيمنة والغلبة، وليست تحكمها التفاهم والتعاضب والحوار، مما انعكس ذلك على ردة فعل الإنسان الشرقي سلباً فيما يتعلق بالأحداث الاقتصادية والسياسية التي تحدث بالمجتمعات الغربية.

- ولقد تم التركيز على الجانب الديني في إبراز صورة العلاقة بين الشرق والغرب في القرن الحادي والعشرين نجد تغيراً أدائياً وقيماً لهذا الجانب عند الحركات الإسلامية الجديدة، وبالأخص التي أساءت فهم النص الديني "فبعد أن استخدم سابقاً للانفتاح على الآخر واستقباله كجزء متمم للذات تحول في نهاية القرن العشرين ومطلع القرن الحالي إلى كلية مناقضة للآخر، ومحصلة ذلك هو الابتعاد عن الواقع بدرجة يسبىء إلى القضية ويشوهها، وهي الصورة المبنية لدى الآخر عن الذات والعكس.

المرجعية الدينية وأثرها في تشكيل صورة الآخر/

تأثرت الحركات الإصلاحية التي ظهرت في العالم الإسلامي في مواجهة المستعمر الغربي بحركة محمد بن عبد الوهاب السلفية حيث ازدهرت الدعوة إلى العودة للأصول التي قامت عليها الحضارة الإسلامية من خلال الدعوة إلى ما يسمونه نبي البدع والخرافات التي أدت إلى حالة الجمود والتخلف. وتأثر بهذه الدعوة العديد من المفكرين الإصلاحيين وتبنوا العديد من مبادئها وإن ظلت العديد من معتقداتهم وأرائهم السياسية والدينية مخالفة للمنهج السلفي التقليدي المعروف.

ومن أبرز هؤلاء دعاة الشيخ حسن البنا وحركته الإصلاحية المعروفة بجماعة الإخوان المسلمين وسيد قطب، وعلى الرغم من تعدد السلفية إلى عدة تصنيفات إلا أنها جميعاً التزمت باتباع التيار السلفي التقليدي بالمنهج النصي للسلفية والالتزام بنموذج السلف الصالح كنموذج متكامل بحد ذاته وهو الحل الوحيد لتقدم أمة المسلمين في كل زمان ومكان.

يشير (حميش، 2003) إلى أن السلفيون بكافة تنوعاتهم ومسمياتهم يحملون نظرة سلبية لقيم ومعتقدات ونظريات الغرب وأسلوبهم في الحياة، وقد وجه علماء ومفكري السلفية نقداً تفصيلياً للنظريات والمناهج والسياسات الغربية، وإن كان ذلك لا يفي بوجود صورة أخرى للغرب يقر له بها السلفيون، تتمثل في كونه متقدم صناعياً، به أرفع جامعات العالم ودور العلم، يملك حياة متقدمة اقتصادياً وتكنولوجياً، وفيه درجة عالية من الحريات السياسية، بينما السلفيون في مجتمعاتهم تسيطر عليهم سلطة الاستبداد. (الهوراني، 2003).

إن صورة الغرب في الوعي والفكر السلفي تتبلور في مواقف عدائية تنطلق من عدة حجج وتبريرات أبرزها :
الطبيعية العدوانية للغرب ممثلة بالغزوات والحملات العسكرية المتكررة ضد الشرق ، منذ عصر الإمبراطوريات الأوروبية القديمة مروراً بحملات الفرنجة في العصور الوسطى، انتهاءً بالاحتلالات الغربية الحديثة والمعاصرة للوطن العربي وللعديد من دول الشرق ، وتبني المشروع الصهيوني بالكامل وتقديم الدعم العسكري والمالي والسياسي والإعلامي له، في احتلاله للأرض العربية وإشعاله المستمر للحروب والمحارق وارتكاب المجازر بحق العرب والمسلمين ، وتهديده باستخدام القوة في مواجهة الدول العربية والإسلامية الراضة لوجوده الاحتلالي في المجتمع الشرقي .

أن عدم فاعلية الحوار السياسي والثقافي مع الغرب، الأمر الذي جعل بعض أصحاب الاتجاهات الدينية إلى اللجوء للعنف المسلح واستخدام القوة أسلوباً في مواجهة الغرب ودفعه على تغيير مواقفه وسياساته العدائية تجاه العرب والمسلمين. يرى السلفيون أن الغرب هو من يتحمل الجزء الأكبر من المسؤولية عن حالة التخلف والتأخر والانحطاط التي يُكابدها الشرق العربي والإسلامي في الفترة الأخيرة، بفعل احتلاله وهيمنته العسكرية والاقتصادية والسياسية على معظم دوله، ومنع أسباب نهوضه وتقدمه العلمي والتقني.

2. رواية الأشجار واغتيال مرزوق (1973)

تتجلى علاقة السيطرة والاستغلال بوضوح في هذه الرواية، حيث تبرز لنا صور اللقاء الحضاري من خلال العلاقة التي تجمع بين "كاترين" التي حضرت إلى الشرق مع بعثة الآثار الفرنسية التي عمل فيها بطل الرواية "منصور عبد السلام" مترجماً بوصفه أستاذ سابق لمادة التاريخ في الجامعة، بعد أن فصل من منصبه بسبب مواقفه السياسية المعارضة والمناهضة للسلطة.

وقد تعرف "منصور عبد السلام" على كاترين في بلجيكا ونشأت بينهما علاقة حب؛ لكنه رفض الارتباط والعودة إلى بلاده، ليقينه بأنها لن تتأقلم مع عادات وتقاليد وطبيعة الحياة في المجتمع الشرقي المتخلف والمحافظة، والتي تختلف جملة وتفصيلاً عن حياة المجتمعات الغربية المتطورة والمتحررة، فهو يرى أن العلاقة بينه وبينها مستحيلة بحكم أنهم من عالمين مختلفين حيث يصف لها عقلية المجتمع العربي الذي يسوده قيود الأمية والجهل، وطبيعة حياة المرأة الشرقية التي تعاني من الاضطهاد والابتزاز والمقايسة. (صالح، 2014: ص270)

لقد بينت الرواية صورة عن المجتمع البطرقي أو المجتمع الذكوري الفوقي المتسلط الذي يكون فيه الرجل الشرقي الأمر الناهي في الأسرة، وكيف يتحكم في مملكته الصغرى (البيت) باعتباره صورة مصغرة عن الحكام في المملكة الكبرى الدولة لكنه أمام الأقوى منه كالمملك أو الحاكم أو من بيده مقاليد السلطة يكون ضعيفاً، مهزوزاً، مسلوب الإرادة، ويصور لنا أيضاً قسوة الحكام في الشرق، كل نقاط التجاذب بين بطل الرواية "منصور عبد السلام" ومجتمعه الشرقي المغضوب عليه قد تلاشت في فضاء الاختلاف والنفور المطلق، وكأنه هو الآخر يرفض الارتباط بالمجتمع المتخلف الذي يسكت عن حقوقه ويسعى وراء التقليد فقط فالبعد الذي وضعه بين الغرب والشرق كالبعد الذي يفصل السماء عن الأرض، شتان بين مجتمع ينظر إلى أبعد نقطة ينطلق منها إلى التقدم وبين مجتمع ينظر إلى الخلف.

ولعل نظرة عبد السلام إلى الحضارات القديمة تعود في أصولها إلى النظرية الماركسية والفكر الإيديولوجي الاشتراكي والذي ينهض على مبدأ تكافؤ الفرص داخل المجتمع، فذلك السبيل الوحيد الذي يحمي الشعوب من الوقوع في الفقر والجوع وينقذها من براثن الاستغلال ويخلصها من مظاهر الاستعباد، لذلك تنفك البنى الأخلاقية للشعوب ويختل الميزان الاجتماعي، وتراجع السيادة الوطنية للأمم، وتضيع القيم العامة وتنتشر ثقافة الفتور والخضوع، وتصبح المرأة سلعة، وتدمر القيم والتراث الحضاري للشعوب، ويزداد التطرف في المجتمعات وتتلاشى الهوية الثقافية، ومن مظاهر السلطة البطركية في مجتمع "طبيبة" في الرواية أن تكتم الحريات ويمنع الناس من الكلام وإبداء الرأي والتعبير عن أنفسهم ومشاكلهم، فالأب المقدس لا يحتمل نقداً ولا معارضة، فكيف لإنسان يعيش تحت سلطة قاهرة كهذه ونسميه متحضر، كيف له أن يكون ذا قيمة وذا وجود وهو يخضع لهذه السيطرة، ويتغير ويتطور وهو مكبل الفكر والروح والجسد.

3. رواية سباق المسافات الطويلة 1979:

تبرز هذه الرواية علاقة العدا والنفور المتبادل بين الشرق والغرب، فقد بدا الغرب أكثر استعلاء للشرق، حيث تستند هذه الرواية على التاريخ الحديث في الكشف عن هوية الأزمة الحضارية في شكلها الجديد التي تلوح لنا بوضوح في نسيج السياسة الاستعمارية الجديدة في الشرق الأوسط وبالضبط في "إيران وتضارب مصالح القوى الكبرى التي كانت تسعى إلى الهيمنة على مصادر الطاقة النفطية في الشرق. (إبراهيم، 2004)

عقدت الرواية مقارنة بين الشرق والغرب ويتضح ذلك من خلال التفاصيل الكثيرة التي تتصل بالوصف العام للشرق، وعلاقاته الاجتماعية ومزاج سكانه وطبائعهم وأخلاقهم وقيمهم وأسواقهم سواء في المدينة أو في الريف، كما يترأى من خلال الشخصيات الروائية المقدمة كشخصية "بيتر ماك دونالد" العميل البريطاني، و"شيرين اللعوب" و"عباس وغيرهم. إذ تعكس الرواية صورة عن الشرق من خلال عيني "بيتر" رجل المخابرات العتيدي الذي يسعى للحفاظ على مصالح بريطانيا العظمى في الشرق.



يقول "بيتر هذه البقعة من الأرض لنا، ولا يمكن لأي قوة في العالم أن تنتزعها، وبقية "بيتر" علاقات مع عدد من الخونة والعملاء الذين يريد من ورائهم الوصول إلى غايتهم، كما ينشأ العديد من العلاقات مع النساء، ولكنه يعتبر علاقته بـ "شيرين" بمثابة الانتصار على الشرقيين، وإيداننا بنجاح مخطئه لإخضاع الشرق لسيطرته

يقول: " ما دامت ملكة الشرق هذه تركع عند قدمي، فإن الشرق كله سيتعلم الركوع بسرعة" (المنيف، 1997، ص 120). كما يصور حياة الشرق، حيث يعمد إلى تسجيل انطباعاته السلبية عن سكان الشرق وعاداتهم وطرق معيشتهم وانغماسهم في الأوهام.

يقول: " الناس في القرية متساوون: بالوجوه، بالملابس، بطريقة الجلوس في مقاهي الشاطئ البسيطة القذرة، بالأصوات العالية، حتى الأطفال وأنا أتمعن وأراقبهم وهم يتقافزون مثل العصافير، أو القبط ويتدافعون ليرموا بعضهم، أو أنفسهم في الماء، بدوا لي متمائلين إلى درجة لا يمكن أن أميز واحدا عن آخر وبت لي أجسادهم الصغيرة المحروقة، ضامرة، بارزة الأضلاع، وأقرب إلى جذوع الأشجار، بالتنوعات التي تظهر بين الأكتاف، وعند المفاصل، أما عيونهم فإنها حمراء تختلط مع صفرة" (المنيف، 1997: ص 170)

لقد حضر "بيتر" إلى الشرق وهو يحمل صور من الكراهية والحقد اتجاه المجتمع الشرقي ومتشبع بثقافة استشرافية استعمارية، فهو يرى أن البدائية أهم ميزة عند الشرقيين، حيث يقول "سيطرت البدائية في كل شيء عند الشرقيين. إن حالة من التخلف والوحشية تبرز في جميع مناحي الحياة" (المنيف، 1997: 129). لقد استطاع أهل الشرق بحدسهم الفطري أن يتلمسوا الروح العدائية ونظرة الاستصغار ودرجة الحقد والاحتقان الذي يوغر صدور الغربيين اتجاههم، فرفضوه وبادلوهم كرها بكرهه، فكانت علاقتهم يطغى عليها الرفض المتبادل، لقد عبر "بيتر" عن هذه العلاقة وشعر بأن نظرات الناس له تحمل الكثير من الدهشة والاستغراب، مما جعله يشعر بالضيق حيث يقول:

" إنهم ينظرون إلى كائي دمية لا يملون أبدا من النظر إلي، وكأنهم لا يصدقون وجودي أو يعتبرونه شيئا مختلف عنهم" (المنيف، 1997: ص 154)

ويقول: "كانوا يبتسمون في وجهي ينظرون إلى بامعان، لكن كنت ألمس وراء الابتسامات والنظرات نوعا من الحذر، وربما الكراهية لقد كان لدى الناس مستوى من الوعي حولهم لفهم معرفة نوايا "بيتر" ضدهم والهدف الذي دفعه إلى المجيء للشرق، لذلك ازدادوا حقا عليه وبغض" (المنيف، 1997: ص 200).

تحليل نقدي:

توضح هذه الرواية الصراع التاريخي الجوهرى في العلاقة بين الشرق والغرب، خصوصا بين الكيان العربى والقوى الأجنبية الخارجية ومخالفته هذه القوى من عدوان وعنف. كما كانت لمنيف رؤيته الخاصة للحضارة الغربية وعلاقتها بالشرق وضحاها بشكل جلي في رواياته، ويذهب "منيف" إلى أن اللقاء بين الشرق والغرب توالد عنه "ثلاثة أنماط للعلاقة، العلاقة الأولى علاقة سيطرة واستغلال، والثانية علاقة رفض متبادل، حيث تتشكل العلاقة الأولى من عقدة الانبهار والثانية بالقبول المتبادل والثالثة علاقة قبول بالآخر ترافقها عقدة الإحساس بالدونية من قبل الأنا، لينفتح أحدهما على الآخر، مركب نقص بالنسبة للأنا (الشرق)، ومركب استعلاء بالنسبة لمركبين متضادين للآخر (الغرب)، مما يجعل الثاني ينظر إلى الأول نظرة استعلائية فوقية، ويمثل البغض والعداء الذي يحمله أحدهما إلى الآخر جوهر العلاقة الثانية، وتظهر في العلاقة الأخيرة نظرة إعجاب متبادلة في ما يخص بعض الأمور التي تمس جانب معين من جوانب حياة الإنسان في كل حضارة. إن رواية سباق المسافات الطويلة تعد نموذجا يكشف زيف خطاب القوى الاستعمارية الذي يعكس نظرة الاستعلاء من قبل الغرب وهي ان الشعوب الشرقية بصورة عامة لا تمتلك المؤهلات الحضارية لإنتاج مجتمعات مدنية، ومن ثم هي لا تستطيع ان تحكم نفسها بنفسها.

وهكذا يكون الزعم بأن مثل هذه الشعوب بحاجة إلى وصاية من الدول الأكثر تقدما. ويبدو ان هذه الرواية تلقي في مضمونها مع الافكار التي ساقها المفكر الكبير ادوارد سعيد في كتابه الاستشراق. حيث يؤكد ادوارد سعيد أن جوهر الاستشراق هو التمييز الذي لا يحى بين التفوق الغربى والدونية الشرقية، فتسلط الافكار الأوروبية عن الشرق، تعيد تأكيد التفوق الأوروبي على التخلف الشرقى وهذا يعنى أنهما لا يمكن أن يلتقيا أبداً، فسيضل الشرق شرقاً، بمعطياته الفكرية والثقافية والحضارية، ويبقى الغرب غرباً بمعطياته الفكرية والثقافية والحضارية.



خاتمة:

ومما سبق يتضح لنا أن قضية "الشرق" و"الغرب" من القضايا الفكرية الكبرى التي ناقشها العديد من رواد الإصلاح والنهضة العربية الحديثة، وهي القضية التي احتفت بها كتب الفكر والأدب على غرار بقية العلوم الأخرى السياسية والاقتصادية والإيديولوجية، والثنائية التي شغلت اهتمام المفكر والباحث الاجتماعي والروائي العربي منذ نشوء فنّه إلى اليوم، وقد عولجت هذه الثنائية على مستوى المتن الروائي العربي ليس كمجرد مكانين جغرافيين أو فضائيين متقابلين، بل بوصفها رمزا لفضاء حضاري شامل انعكس على ثنائيات أخرى التقدم والتخلف، الأصالة والمعاصرة، الرجولة والأنوثة، المادة والعاطفة أو الخيال والعقل، العلم والدين، القديم والحديث. لذلك كان من الأهمية بمكان استحداث طور جديد من التناول الروائي في سياق اجتماعي ثقافي يعكس لنا تطور العلاقة بين الشرق والغرب من خلال رصد التعبيرات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي طالت الخطاب الديني والفني في الأونة الأخيرة من أجل معالجة الهوية بين الذات والأخر الغربي.

ولقد كشفت النماذج الفكرية والروائية التي تناولتها الدراسة أن صورة الآخر الغربي في الفكر العربي المعاصر لم تتشكل بوصفها صورة ثابتة أو أحادية، بل جاءت نتاجاً لتراكمات تاريخية وثقافية وسياسية معقدة. فقد تراوحت هذه الصورة بين الرفض والمواجهة، والانبهار والتبعية، وبين الرؤية النقدية التي سعت إلى فهم الآخر بعيداً عن الأحكام المسبقة. كما أظهرت الروايات المدروسة أن العلاقة بين الشرق والغرب غالباً ما اتسمت بالتوتر الناتج عن إرث الاستعمار، والصور النمطية المتبادلة، والشعور المتبادل بالتفوق أو الدونية. ومن خلال التحليل يتبين أن الخطاب الروائي العربي لم يكن مجرد انعكاس لهذه العلاقة، بل تحول إلى أداة نقدية تسعى إلى تفكيك البنى الثقافية والفكرية التي كرسّت الصراع بين الذات والآخر. فالروايات المدروسة كشفت عن أزمات الهوية، وإشكاليات السلطة، وآثار الهيمنة الثقافية، كما أبرزت الحاجة إلى تجاوز النظرة الاختزالية التي تحصر الآخر في صورة العدو أو النموذج المحتذى.

وعليه، فإن الإشكالية الحقيقية لا تكمن في وجود الآخر بحد ذاته، وإنما في طبيعة التمثيلات الذهنية والثقافية التي تحكم العلاقة معه. ومن ثم فإن بناء علاقة أكثر توازناً يقتضي الانتقال من منطق الصراع والإقصاء إلى منطق الحوار والتفاعل الحضاري، بما يتيح تأسيس رؤية إنسانية قائمة على الاعتراف المتبادل والاحترام الثقافي، بعيداً عن ثنائيات التفوق والدونية التي ظلت تحكم جزءاً كبيراً من الخطاب العربي والغربي على السواء.

المراجع

1. إبراهيم صالح. (2004)، أزمة الحضارة العربية في أدب عبد الرحمن منيف، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى. المجلد 1
2. الطاهر لبيب. (1999) صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت
3. الحربي، صالح. (1441)، دراسات صورة الآخر في الأدب العربي وأثر إدوارد سعيد دراسة مقارنة. مجلة جامعة طيبة: للأدب والعلوم الإنسانية، السنة السابعة، العدد 20 ،
4. البازعي، سعد. (2008) الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب.
5. الزيندي، عبد الرحمن. (1998) السلفية وقضايا العصر. مركز الدراسات والإعلام، دار اشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الرياض.
6. الحمد تركي،. 2005 رواية رح الجنة، دار الساقى، الطبعة الأولى، بيروت
7. جابري، محمد عابد، (1982)، الخطاب العربي المعاصر، دار الطليعة، بيروت.
8. حميش، سالم. (2003) في معرفة الآخر، ط2، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا - حوران، ألبرت (1977)، الفكر العربي في عصر النهضة، دار النهار للنشر، بيروت.
9. سعيد، إدوارد. (1978) الاستشراق، ترجمة كمال أبو ادب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت
10. عبد السلام، محمد،. 2013 أخلاقيات المناقشة في فلسفة التواصل لهايرماس، دار ورد للنشر والتوزيع، الأردن.
11. مصطفى، سناء. دت التطور التاريخي للعلاقة الحضارية بين الشرق والغرب، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية. جامعة المينا، مصر.

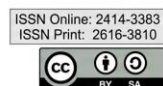


مجلة الفنون والآداب وعلوم الإنسانيات والاجتماع

Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences

Website: www.jalhss.com | Email: editor@jalhss.com

Volume (131) June 2026 | العدد (131) يونيو 2026



12. منيف، عبد الرحمن (1993) الأشجار واغتيال مرزوق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، بيروت.
13. منيف، عبد الرحمن. (1997)، سباق المسافات الطويلة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط3، بيروت
14. نور الدين، محمد. (2000) الغرب المتخيل صورة الآخر في الفكر العربي والإسلامي الوسيط". منشورات المركز الثقافي العربي المغرب، ط.1